

علاقة القوى الروحية بالإدارة العثمانية في الجزائر (التصوف أنموذجا)

د.سعودي أحمد*

الإرسال:	2018/02/28	القبول:	2019/11/04	النشر:	2019/12/31
----------	------------	---------	------------	--------	------------

الملخص باللغة العربية:

لقد أدرك العثمانيون منذ اتصالاتهم الأولى بالقوى المحلية في إيالة الجزائر العثمانية و الممثلة في المرابطين وشيوخ القبائل، أن نجاحهم في حكم الجزائر أي العثمانيين، متوقف على مدى نجاحهم في التقرب والتعامل مع تلك القوى ذات الحضور الديني والاجتماعي القوي، ومدى تمكنهم من الحصول على دعم رؤساء ومشايخ ورموز تلك القوى، فبادروا لأجل ذلك إلى سياسة كان الهدف منها محاولة استمالة تلك القوى وكسب ودها إن أمكن، وإلا العمل على إخضاعها بمختلف الوسائل المتاحة والممكنة، وقد سجل لنا التاريخ اختلافا واضحا في المواقف والأدوات التي اعتمدها العثمانيون في التعامل مع تلك القوى الدينية على امتداد المدن والأرياف في مختلف الأقاليم، وفي مدى تجاوب تلك القوى مع تلك السياسة أو رفضها والتمرد عليها وهو ما سنتعرض من خلال هذا المقال العلمي.

الكلمات المفتاحية: الطرق الصوفية- العثمانيون- الجزائر- الزوايا- القوى الروحية.

ملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract: Since their first contacts with local forces in the Ottoman Ile of Algeria and represented in the Almoravids and tribal sheikhs, the Ottomans have realized that their success in the rule of Algeria, the Ottomans, depends

* - أستاذ محاضر -، جامعة عمارتليجي - الأغواط، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية والحضارة، قسم التاريخ
البريد الإلكتروني: [saoudiahmed67@gmail.com].

on their success in approaching and dealing with those forces with strong religious and social presence and their ability to obtain The leaders, leaders, and symbols of those forces supported them, so they resorted to a policy that was intended to attempt to win over these forces and win them if possible, otherwise work to subject them by various means available and possible. History has recorded a clear difference in the attitudes and tools adopted by the Ottomans in dealing with With those religious forces along the cities and countryside in different regions, and in the extent of the response of those forces with that policy or to reject and rebel against it, which will be presented through this scientific article

مقدمة:

فهم العثمانيون منذ بدايات تعاملهم مع القوى المحلية في الجزائر العثمانية بعد إلحاق الجزائر بالدولة العلية منذ 1519م أن نجاحهم في حكم الجزائر واستمرار بقائهم فيها، مرتبط بقدرتهم على التقرب و التعامل مع تلك القوى ذات الحضور الديني و الاجتماعي القوي، ومدى تمكنهم من الحصول على دعم رؤساء ومشايخ ورموز تلك القوى كما أن هذه القوى الدينية متمثلة في المرابطين وشيوخ الزوايا والطرق الصوفية، هم أنفسهم وقفوا تجاه السلطة العثمانية في الجزائر من مسافات مختلفة، فبعضهم تبني الولاء المطلق للسلطة والبعض الآخر دخل في صراع مع تلك السلطة الزمنية، فيما إختار آخرون الجهاد.

ولا شك أن مدة مكوث العثمانيين في الجزائر الطويلة نسبيا (1519-1830م) وتغير طبيعة ونظام الحكم خلال الفترات المعروفة (البالبربايات - الأغوات- الباشوات- الدايات) ومرور المئات من الحكام على دفة الحكم، كل ذلك يجعلنا لا نجد صورة واحدة لتلك العلاقة، بل لكل فترة وربما لكل حاكم علاقة مع تلك القوى الدينية بناء على الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية لتلك المرحلة ، فما هي تلك القوى الروحية التي كانت تتحكم في جزء هام من المجتمع الجزائري؟ ولماذا، وكيف تعاملت مع الوجود العثماني في الجزائر في الجزائر متمثلا في حكامه (1519-1830م)؟ ماهي أشكال هذا التعامل ومبررات ذلك؟ وكيف تعاملت السلطة العثمانية في الجزائر

بدورها مع تلك القوى؟ وهل انعكست هذه التحالفات و التجاذبات على الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي للجزائر العثمانية؟

أولا: سياسة الإدارة العثمانية في الجزائر تجاه القوى الدينية في المدن والأرياف:

إن احتكاك العثمانيين بالمرابطين قبل استقرارهم في الجزائر أي منذ مرحلة الجهاد البحري التي تبناها الإخوة بربوس في الحوض الغربي للمتوسط ، سمح لهم بمعرفة مدى النفوذ الروحي لهذه الفئة على عامة الناس وقدرتهم على حشد العامة عند الضرورة و من خلال تقدير سلطة شيوخ الطرق الصوفية في يوميات المجتمع الجزائري ، أدرك العثمانيون أهمية هؤلاء في إنجاح عملية تعبئة العامة ضد الخطر المسيحي الذي كان يهدد الجزائر من خلال تلك الحملات البحرية المتعددة التي كانت تستهدف سواحل الجزائر ومدنها شرقا وغربا، ولذلك فإنهم عملوا على استغلال هذا التأثير لحشد الطاقات المحلية ضد هذه التحرشات الصليبية.

وهذا ما نلمسه من خلال قراءة مؤلفات تلك الحقبة التاريخية أو القريبة منها فشهادات عبد الكريم الفكون مثلا¹ تؤكد ترجيح السلطة العثمانية في الجزائر

¹ - مولده ونسبه وعائلته: ولد عبد الكريم الفكون بقسنطينة سنة 988 هـ / 1580 م، ينتهي مترجمنا لأحد أعرق وأشهر البيوتات العلمية في مدينة قسنطينة: بيت آل الفكون، التي توارث أفرادها منذ عهد المجد والرئاسة، والعلم والمصالح. طلبه العلم وشيوخه: نشأ الفكون في كنف والده الذي هو كان أول شيوخه فحفظ على يديه القرآن الكريم وتلقى المبادئ الأولية للعلوم في زاوية العائلة، ثم عكف على تحصيل مختلف العلوم الشرعية واللغوية، ثم تولاه كبار شيوخ عصره من أمثال سليمان القشي، عبد العزيز النفاتي الذي قرأ عليه الحساب وبعض الفرائض، أبو عبد الله محمد الفاسي المغربي، الذي قرأ عليه الاسطرلاب وبعض الفرائض، محمد التواتي المغربي ومحمد بن راشد الزواوي، وقد كان لهذين العالمين الأخيرين تأثير كبير في اتجاهه نحو دراسة النحو والتضلع فيه .

وكان محبا للمطالعة و تثقيف نفسه، فكان كثيرا ما يعتكف على القراءة وحده من مكتبة العائلة الزاخرة بأهميات الكتب والمخطوطات، التي جمعها شيوخ العائلة خلال عقود من الزمن.

الوظائف والمهام التي تولاهما: تولى التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة في حياة والده الذي كان ينسبه عنه أثناء غيابه رغم صغر سنه نسبيا، وقد ظهرت عليه مخايل النبوغ والذكاء في سن مبكرة فكان بارعا في "فنون العربية لغة ونحوا وتصريفا وبلاغة مع المشاركة التامة في الفقه والأصليين الحديث والتصوف وغير ذلك"، كما دُرِّسَ في زاوية العائلة وفي مصلى بيته، وفي المدرسة التابعة لعائلة الفكون فكان يستقبل الطلبة من قسنطينة ومن غيرها من نواحي القطر خصوصا من منطقة زاوية ومن منطقة الجزائر وما حولها، ومن منطقة الزيبان وعنابة، وكان يُدرِّسُ التفسير وصحيح البخاري والفقه من ابن حاجب والرسالة والنحو .

وبعد وفاة أبيه عام 1045 هـ خلفه في إمامة المصلين والخطبة أيام الجمع والأعياد، والسهر على أوقاف الجامع الكبير، كما تقلد إمارة ركب الحج وحصل على لقب شيخ الإسلام بعد أن بلغ نفوذه العلمي والروحي ذروته . توفي بالطاعون عشية الخميس 27 ذي الحجة 1073 هـ الموافق لـ 3 أوت 1663 م عن عمر يناهز خمس وثمانين

لخيار التقارب مع الأولياء والتعويل على خدماتهم ضمن خطتهم الرامية لكسب ولاء القبائل ومد جسور التفاوض معها¹.

ولنبداً بتتبع سياسة العثمانيين في الجزائر مع هذه القوى داخل الحواضر والمدن، حيث سعى الحكام العثمانيين بالمدن للاستفادة من نفوذ المرابطين والعلماء والحصول على تأييدهم داخل هذه الحواضر²، وذلك للحيلولة دون تدخلهم في شؤون السلطة لاسيما وأن أعداد العثمانيين (أتراك وغيرهم) كانت قليلة دائماً بالمقارنة مع السكان المحليين. فكانوا كثيراً ما يمنحونهم العديد من الإمتيازات، كإعطائهم نسبة معلومة من مغانم البحر وإجزاء الهدايا والعطايا لهم أيام المناسبات والأعياد الدينية، وغير ذلك من المناسبات المتعلقة بالعثمانيين أنفسهم كتنصيب الحكام الجدد أو بعد الإنتصارات العسكرية وغيرها، ويلاحظ أن هذه العطاءات تحولت أحيانا إلى إمتيازات من النوع الروحي وبتشجيع من العثمانيين أنفسهم، حتى أضحى ضريح بعض الأولياء ملجأ لكل لاجئ إليه مهما كانت جريمته³، ومن أمثلة ذلك إكرام السلطة العثمانية في الجزائر لزاوية الشيخ عبد الرحمان الثعالبي⁴ وضريحه،

سنة. للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، صص 37-69.

¹- لظفي عيسى، مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 111.

²- كورين شوفالبيه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، تر: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 86.

³- شوفالبيه، المصدر نفسه، صص 87-88.

⁴ - ولد عبد الرحمن الثعالبي سنة 786هـ/1384م بمنطقة يسر ولاية بومرداس، ونشأ في بيئة علم ودين وصلاح، تلقى تعلمه على يدي علماء منطقته. تولى سيدي عبد الرحمن الثعالبي القضاء بالجزائر ومشيختها ولكنه تخلى عنها ورفضها وفضل القيام بالتعليم، فالقضاء والمشيخة رأى أنه موجود من يقوم بهما وبقي في وسعه أن يصلح بين الناس ويرشدهم لما فيه الخير والفلاح، ولهذا أصبح الثعالبي يتمتع باحترام تام لدى الخاص والعام وخاصة وجهائهم، وقد دفع هذا الاحترام والتبجيل إلى بناء مسجد قرب منزله وأسموه باسمه "مسجد سيدي عبد الرحمن الثعالبي" وبعد موته دفن بالمكان الذي كان يعلم فيه الطلبة قرب بيته وكان يسمى آنذاك بـ "جنان الطلبة".

توفي الثعالبي يوم الجمعة 23 رمضان 875هـ منتصف شهر مارس 1471م ودفن في زاويته بالقصبة بالجزائر العاصمة حيث ضريحه بها إلى اليوم. بني ضريحه على يد العثمانيين سنة 1612م. أنظر: عبد الرزاق دحمون، الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، دار ابن حزم، 2009، صص 10-19.

لكونها تتواجد بعاصمة الدولة ولكون الثعالبي نفسه من أبناء المنطقة الذين كسبوا إحتراما كبيرا لدى معظم الجزائريين داخل وخارج مدينة الجزائر¹.

أما في الأرياف فقد اختلف الأمر نسبيا لأن القوى المحلية فيها من شيوخ القبائل والمرابطين الذين كانوا يساومون الأسياد الجدد في أمر الامتيازات التي اعترف لهم بها الأمراء القدامى، تحت الضغط و التهديد بعدم مواصلة المبايعة لهم ،وقد كان الحكام العثمانيون في البداية مضطرين للرضوخ لرغباتهم تلك ، بسبب الحاجة الماسة إليهم لا سيما في جهادهم البحري ضد الإسبان أو حتى لضمان هدوء الجبهة الداخلية ومواجهة أي تمردات قبلية مناوئة، والثابت أن العثمانيون لم ينتصروا على الإسبان كما تذكر معظم المصادر إلا بعد جهد كبير وبمساعدة أغلبية مشايخ الزوايا والمرابطين في شرق وغرب إيالة الجزائر، وهم الذين نجحوا اي العثمانيون في استمالة الجزائريين لحكمهم ، بالإعتماد على العامل الديني المشترك مع العثمانيين وتحول دولتهم وسلطتهم كرمز للخلافة الإسلامية ، دون أن تغفل رغبة الجزائريين أنفسهم في الاستفادة من القوة المادية المستمدة من عظمة الإيالة العثمانية².

كما وطد الساسة العثمانيون صلتهم مع أولئك الشيوخ عن طريق استشارتهم في العديد من القضايا خاصة الدينية منها، لتتخذ هذه الاستشارة طابع الدعاء وشبه البيعة طلبا للتأييد في السلوك السياسي، أو عند الإستعداد للجهاد وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تقدير الحكام العثمانيين لدور الشيوخ في الحياة العامة وإدراكهم لمدى تأثيرهم في المجتمع³.

وهكذا يلاحظ أن العلاقات كانت أعقد في الريف مما كانت عليه في المدينة، فهنا نجد المرابطين الذين توجهوا نحو التصوف الروحي كما رأينا، وهناك أي في الأرياف نجد رؤساء أو شيوخ القبائل الذين كانوا ملزمين بالقضايا الدنيوية، ليمثل ظهور الحاكم العثماني كمنافس لهم، أكثر منه كونه بطلا أو رمزا للإسلام، وهذا ما بلور بوضوح موقفين مع مرور الوقت تجاه السلطة العثمانية من تلك القوى القاطنة بالريف:

¹ - أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص92-93.

² - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب من الغزو الإيبيري إلى التحرير، ج3 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، بيروت، 1999، ص46.

³ - . كمال عمران، الثقافة الإسلامية مظاهر التجريب والتجريد، الدار التونسية للنشر، 1992، ص114.

- موقف الشيوخ الذين لم يكن لديهم ما يخسرونه من سلطة روحية أو إمتيازات مادية، وهؤلاء انظموا منذ البداية للإخوة بربروس .
موقف المرابطين الزعماء الذين كانت لهم إمتيازات مادية وروحية، و بقي موقفهم غامضا بإنتظار التطورات .
- لكن العثمانيين نهجوا سياسة حكيمة، ونجحوا في تدعيم سلطتين بالريف، كانتا حليفيتين لهم : سلطة دنيوية تمثلت في شيوخ القبائل وقادة العشائر الذين ثبتوهم في مواقعهم بغرض الإستفادة منهم وسلطة روحية تمثلت في لجوئهم لأهل الصلاح والطريقة والتصوف يتزلفونهم، ويحمونهم ويطلبون بركاتهم وعونهم على الرعية¹.
وبالرغم من أن المرابطين كانوا يُسمعون البايات و الباشوات أحيانا حقائق قاسية فإن العثمانيين كانوا يحترمونهم ويغرقونهم بالهدايا، لإنهم كانوا وسيطهم الوحيد والمؤثر مع القبائل خاصة خلال الحملات العسكرية الفصلية (المحلات)².
كما عمل الحكام العثمانيون في الجزائر على استرضاء المرابطين بطلبهم العفو، إذا ما تعرض هؤلاء أو قبائلهم لمهانة كما وتبادلوا معهم الرسائل وأصدروا لصالحهم الظهائر واحترموا مبدأ العناية، ولم يبخلوا على بعض شيوخ الزوايا من ذوي النفوذ بالهدايا والتقدير، وتركوا بهم وأسقطوا عنهم الجباية وأعمال السخرة، وخوّلوا لهم جمع الزكاة والعشور لفائدة الزوايا كما شجعوا وساهموا معهم في بناء القباب ، ولم يتأخر رجال الدولة في شراء صمت بعض المرابطين الأدعياء بالتغاضي عن أعمالهم، ولو كانت مخلة بالأخلاق العامة، وحتى بالدين، كما لم تخلو تلك العلاقة حتى من بعض التصرفات الطائشة فقد رشى بعض المرابطين وال دراويش الولاية حتى يسكتوا عن ابتزازهم لأموال العامة، والتعدي على الحرمات والأعراض، مثل المرابط قاسم بن أم هاني الذي أنكر التأثير لله وإدعى أنه يملك التصرف، وقد ثبت في العديد من المصادر أن الكثير من أنصاره يدفعون الرشى للولاية³.

¹ - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج1، ص145 .

² - نفسه، ص146 .

³ - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم والولاية، تق وتغ وتغ : أبو القاسم سعد الله ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1987، ص ص 121-131 .

هكذا يتضح كيف كانت العلاقة وطيدة بين الحكام العثمانيين وبعض المرابطين وشيوخ القبائل وال دراويش لأن كل طرف كان يستفيد من الطرف الآخر¹ ومما تقدم يمكن القول أن العثمانيين اكتسبوا تأييد القوى الدينية في ظرف مميز كان خطر الإسبان فيه قائما، إذ تمكنوا من احتلال مواقع عديدة على الساحل وكانوا يهددون المناطق الداخلية المجاورة لها، فكان السكان ينظرون إلى العثمانيين على أنهم منقذون لهم من ذلك الخطر أكثر من كونهم حكاما مستبدين خاصة وأن وجود العثمانيين الحقيقي انحصر في المدن وأحواضها لأنه كان لا يحتاج لأخذ موارده من الداخل مادامت غنائم الجهاد البحري توفر لهم مصادر تسد حاجة الجيش، وكان ينفق منها على المرابطين وشيوخ الزوايا².

هكذا وبهذه السياسة نجحت حكومة الأوجاق في اكتساب دعم المرابطين ومساعدتهم لهم، أو على الأقل الحصول على حيادهم بعد أن اتخذ النزاع الإسباني العثماني صبغة دينية، فتوطن العثمانيين بإيالة الجزائر تحقق بمشاركة فعالة من هؤلاء المرابطين والطرق الدينية، الذين هيئوا الأرضية ونفسية المجتمع الجزائري لاستقبال أبطال الإسلام وقادتهم الذين حاربوا الإسبان. لكن بعد رد الإسبان إلى ما وراء أسوار وهران ضعفت الدوافع الجهادية، فطراً على العلاقات بين الحكام العثمانيين والقوى الدينية في أرياف الجزائر وأقاليمها تطورات.

ثانيا: مكانة المرابطين لدى حكام الجزائر العثمانيين:

اكتسب المرابطون سلطة معنوية بعد أن عملوا على وقف التدهور الذي كانت البلاد آيلة إليه منذ القرن 8هـ/14م، واستغلوا الفرصة لنشر تعاليم الطرق في المدن والأرياف حتى عرفت انتشارا منقطع النظير خلال القرن 10هـ/16م، خاصة الطريقة القادرية³.

وقد تفتن العثمانيون للدور العظيم الذي يمكن أن يؤديه المرابطون، فلم يعاملوهم معاملتهم لسائر السكان، حيث كانوا يستشيرونهم ويشاركونهم في المعارك

¹ - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج1، ص471.

² - ناصر الدين سعيدوني والمهدي بو عبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، وزارة الثقافة والسياحة، ص38.

³ - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج1، ص513.

والمفاوضات، كما خصصوا لهم جزءا من مداخيل الجهاد البحري¹ ومنحهم امتيازات متعددة² لأن السلطات السياسية أدركت كما سبق الإشارة إليه، أهمية تدخل الطرق الدينية المباشر في الحكم، كما أدركت تجذر الطرق في حياة العامة، لهذا سعت السلطة لإحتوائها والتصالح معها، أكثر مما سعت لكبحها³ و بذلك فضّل الحكام التأقلم مع المرابطين⁴.

كما أنه لا يجب أن لا ننسى أن العثمانيين في معظمهم كانوا من العامة والذي تجندوا في الجيش العثماني طلبا للرزق، وأنهم أيضا كانوا يبجلون المرابطين، فالجندي الإنكشاري عندما يحل بالجزائر يحمل معه عقلية ما مارسه معه الدراويش في موطنه الأصلي، ويجد مرابطين آخرين يزودونه بالبركات والدّعوات كلما خرج للغزو البحري تماما كما يفعل أبأوه في الأناضول والبلقان⁵، فقد كانوا قبل القيام بالغزو يدخلون لزاوية والي دادة أو ضريح سيدي بتقة (أبي التقى) وغيرهما طالبين من الأولياء البركة والنصر⁶.

هذا الاحترام كان عن عقيدة متينة وفعلية حتى بالغ العثمانيون في تعظيم المرابطين وإكبارهم، حيث لجؤوا إليهم للتبرك ولاستشارتهم، مما يدل على الثقة المتبادلة، فهذا يبري رايس ظل مع عمه كمال رايس شتائين كاملين منذ سنة 1495/هـ 901م بيجاية في زاوية المرابط محمد التواتي⁷.

غير أن هناك رأي آخر يرى أن العثمانيين بالجزائر لم تكن لهم أي ميول دينية لهذا لم ينشغلوا بتطوير الثقافة الدينية، وما إهتمامهم الضئيل بأمور الدين إلا لإنعكاسها على الحكم والأمن والإستقرار بالبلاد فقط، حيث إتبعوا سياسة معينة

¹ - محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع والمؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1985، ص58.

² - محمد الأمين بلغيث، النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ محمد بن عمر العدواني في المجلة التاريخية المغربية (العهد الحديث والمعاصر)، العدد 117، 2004، ص40.

³ - سبنسر ترمنجهام، الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة ودراسة وتعليق: عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1997، ص356.

⁴ - نفسه، ص83.

⁵ - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج1، ص190.

⁶ - كورين شوفالبيه، المصدر السابق، ص87.

⁷ - سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج1، ص191 و ص464.

لإدراكهم تأثير المرابطين على العامة، فسعى العثمانيون للفوز بدعمهم أو على الأقل الحصول على حيادهم¹، وإنضمام الحكام للطريقة ليس للحصول على الدعم فقط لكن لمراقبتها أيضا، كما لم يحاول العثمانيون ربط المرابطين برباط رسمي، خوفا من ضياع هيبتهم لدى العامة، وإكتفوا بمنحهم شهادات الإحترام والتقدير، مما رفع مقام المرابطين عند العامة، هذا الرباط المعنوي السري كان فعلاً حيث سمح لحكام الجزائر بممارسة حكمهم بقوات قليلة نسبياً.

يصدق هذا في علاقة السلطة بالقوى الدينية، لكن هذه السياسة سمحت للمرابطين من جهة أخرى بنشر التعليم وإيصاله إلى المناطق البعيدة بالريف، التي لم تصلها السلطة، وإذا لم يكن للعثمانيين سياسة دينية بالجزائر فموقفهم من القوى الدينية جاء بنتيجة إيجابية، حتى أصبحت الثقافة متاحة للجميع بعد أن كانت مجرد شارة للإنتخاب والإمتياز، ورأى الناس في سلطة الزاوية والمرابط منبج العدل والشفقة²، وإذا ما بحثنا فيما أدى إلى إنتشار القادرية على سبيل المثال في الجزائر إنتشاراً كبيراً، وموقف حكام الجزائر منها لوجدنا في المصادر التاريخية مايلي:

*- أن السلطان العثماني كان حامي الطريقة بالمشرق³ وإنضمام السلاطين والوزراء للطريقة يعني إصغاءهم لشيخ الطريقة.

*- أن حكام الجزائر العثمانيين كانوا على غرار السلطان العثماني، في حمايتهم للطريقة القادرية، وإيثارهم لأتباعها واضحين، مما يفسر الإنسجام الملحوظ بينهم وبين أتباع الطريقة⁴، ومن ثم إنتشارها الواسع في البلاد الجزائرية في عهدهم وإن كانت الطريقة أخذت في الإنتشار فيها قبل بداية العهد العثماني حيث كان لها أتباع في مختلف أرجاء البلاد، وفي تونس والمغرب الأقصى وبعد قيام السعديين في هذا الأخير وجدت القادرية نفسها في حرج مع هؤلاء وكانت أكثر إنسجاماً مع العثمانيين بالجزائر لأن هؤلاء ثبتوا على الجهاد ضد العدو الكافر بينما مال السعديون إلى مهادنة الإسبان مما يفسر إحتقار العثمانيين لمنطقة تلمسان وندرومة المؤيدة للشاذلية وهي طريقة السعديين، وبسبب ثوراتها المتعددة ضد الحكم العثماني وخروج مرابطيها الشاذليين إلى المغرب

¹ - كورين شوفالبييه، المرجع السابق، ص 86.

² - عبد الله العروي، المرجع السابق، ج 3، (ص 62-63).

³ - ألفرد بل، الطرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر:عبد الرحمن بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 430.

⁴ - نفسه، (ص 430-432).

الأقصى بعد ضم تلمسان للجزائر مثل مرابطي أولاد سيدي أبي عبد الله، وسيدي محمد أفغول وسيدي عمار الذين تحالفوا مع الإسبان في 942هـ/1535 م . كما يكتشف الباحث أن العلاقة بين العثمانيين والمرابطين توطدت بعد أن ذاع صيت إخوة بربروس في الحوض الغربي للمتوسط خاصة بين سكان مدينة الجزائر، ولاسيما بين الصلحاء والمرابطين منهم ، الذين كانوا يدعون الناس للجهاد ومحاربة الإسبان المستولين على معظم الموانئ وكان على رأسهم المرابط أحمد بن القاضي الزواوي¹.

وقد نجح عروج في كسب مساعدة معنوية من السلطات الدينية رغم أنه قتل سالم التومي عندما أراد إستعادة نفوذه على مدينة الجزائر²، لكن المرجح أنه تصالح مع عائلة التومي بتدخل من خليفة الولي سيدي عبد الرحمن الثعالبي³، لأن الحقد ضد العدو المسيحي أضحى نقطة تفاهم وتلاق بين الطرفين ، أما خير الدين فعرف كيف يقوم بالدعاية لصالحه ، منذ أن كان بتونس في 921هـ/1515م، وبرز بفضل تبيجه للعلماء المحليين وعمله بعد ذلك مع أخيه عروج ثم بعده على أن يرفع من مكانة المرابطين بإحترامهم وإستشارتهم والأخذ برأيهم وقد كانت لهذه السياسة نتائج تجلت في :

- تزكية العلماء لجهاده البحري والدعاية لها .
- ميل علماء مدينة تنس إليه وتخليهم عن أميرها الذي انقلبوا عليه وأباحوا دمه الأمر الذي جعله يهرب من المدينة .
- رفضه في سنة 925هـ/1519م قبول فدية الشخصيات الكبيرة التي وقعت في قبضته خلال الإنزال الذي قام به الإسبان في تلك السنة في الجزائر بقيادة هيغو دو مونكادا، إحتراما لرأي علماء الجزائر و مرابطيها .
- كما أبقى خير الدين على المرابطين إلى جانبه، حيث كا نباستمرار يغدق عليهم بالمال ويحتفي بهم، ففي 942هـ/1535م زار ولي البليدة سيدي أحمد الكبير ومقابل

¹ - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 44 .

² - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج1، ص 211 .

³ - كورين شوفالبييه، المرجع السابق، ص 32 .

دعائه له ، بنى خير الدين له ولأتباعه المورسك مسجداً وبقره فرن وحمام¹ وعلى نهجه سار خلفاؤه من الحكام العثمانيين، مثل رجب باي التيطري الذي أعفى كل الشرفاء من الضرائب وأعمال السخرة وذلك في جمادى الأولى 9/هـ/1548م، كما أعفى العثمانيون المرابط ابن شعاعة، تلميذ الملياني وصاحبه من الضرائب.

كما أن الباحث في تاريخ الجزائر في القرن 10/هـ/16م يمكنه أن يرصد مواقف عديدة للسلطة من القوى الدينية المتمثلة أساسا في المرابطين، وأتباع الطرق الصوفية ومشايخهم في المدن والأرياف في مركز الدولة وفي أقاليمها أو ببالكاتها وسياساتهم تجاهها ، مما يجعلنا نقول أن تلك المواقف تحددها أو ترسمها إلى حد كبير مصالح الطرفين فالتقارب والتباعد والتودد والتنافر يخضع إلى مصالح هذا الطرف أو ذاك، والمنازعات التي حدثت بين إمارة كوكو بالقبائل الكبرى، وإمارة بني عباس بالقبائل الصغرى أضعفتها ماديا ومعنويا وجعلتهما أكثر إنقيادا لهما.

وقبل ذلك وعندما تضايق العثمانيون من سلطة ونفوذ كل من ابن القاضي² وسالم التومي ، إغتالوا هذا وتحالوا على ذلك إلى أن إغتيل من طرف أحد خاصته³ ورغم الإتفاق الذي وقع في 935/هـ/1529م بين خير الدين والحسين بن القاضي، والذي إترف فيه خير الدين بالحسين حاكما على كوكو والقبائل في مقابل الإعتراف بالسيادة العثمانية⁴ بقيت إمارة كوكو تناوئ العثمانيين إلى أن تقرب صالح رايس (959-963/هـ/1552-1556م) من أمير كوكو وصاهره بعد مساعدة قبائل الزواوة له في فتح بجاية ونفس الموقف وقفه حسن باشا مع حاكم كوكو مانحا إياه سلطات محلية واسعة⁵.

- محمد الحاج صادوق ، مليانة ولها سيدي أحمد بن يوسف ،دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر،

¹ ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1989،، ص158 .

² محمد بن يوسف الزباني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي

بوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1972. ص 176 .

³ كورين شوفالبيه، المرجع السابق، ص 48.

⁴ نفسه، ص 133 .

⁵ أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج1، ص 211 .

كما تحالف العثمانيون مع أمراء بني عباس لبعض الوقت لمد نفوذهم إلى تلمسان في 952هـ/1545م و 957هـ/1550م وتقرت في 959هـ/1552م وورقلة¹، ثم إنقلبوا عليهم لأنهم رفضوا نفوذهم على منطقتهم بجاية، فعزله حسن باشا في 966هـ/1559م وثار سي عبد العزيز إلى أن قتل، فخلفه أخوه سي أحمد أمقران الذي بايع للسلطان العثماني وحاكم الجزائر على مضض .

وقد عرفت منطقة القبائل مصادمات عنيفة مع العثمانيين على عهد كل من خير الدين وحسن آغا وحسن بن خير الدين وصالح رايس، إنتهت بالتسليم بشرعية الحكم المركزي واستقرت الأوضاع بعد إخضاع إمارتي كوكو وبني عباس لنفوذ الجزائر، ولكن وإن فقد مرابطوا القبائل الملاك دورهم المهم على الصعيد العام فقد احتفظوا بدور محلي لا يقل أهمية بالنسبة للعثمانيين الذين لم يستطيعوا إستغلال المنطقة ودخولها إلا بموافقة المرابطين في مقابل حصول هؤلاء على حقوق إقطاعية ، لذلك أبقى العثمانيون على الإمتيازات التي إكتسبها أولاد أمقران بمجانة بعد النزاع الذي شب بين الطرفين لأن أولاد أمقران رفضوا دفع الضرائب ، لكن محمد بن فرحات باي في (996-1017هـ/1588-1608م) قاتلهم و إكتفى بتغريمهم خسائر الحرب فقط² .

كما كان الحكام العثمانيون يستعينون بالمرابطين عند ثورة السكان وتمردهم على الحكم المركزي، ليهذبوا الوضع وفي مقابل ذلك كانوا يغدقون عليهم بالهدايا، كما فعلوا مع المرابط سيدي محمد أمقران في القرن (10هـ/16م) الذي عمّ نفوذه منطقة بجاية وجيجل ، حيث إتصلت به الحامية العثمانية مانحة إياه عدة إمتيازات. هكذا يتضح أنه عندما فشلت السلطة في إلحاق الحركة المرابطية بها أو السيطرة عليها أو تجاوز نفوذها عوضت ذلك بجعل الحركة الوسيط بينها وبين العامة. أما في الغرب الجزائري الذي كان للقوى الدينية فيه سلطة كبيرة فيلاحظ أن العثمانيين أبقوا على إمتيازات المرابطين التي حصلوا عليها من الزيانيين لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد ، ونجد العلاقة بين المرابط أحمد بن يوسف الملياني وأوائل حكام الجزائر العثمانيين قد إستحكمت ضد الإسبان والزيانيين، وكان المرابط أحمد بن

¹ - مرمول كريغال ، إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1989/1988، ص386.

² - محمد الصالح العنترى، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة وإستيلامهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة.

مراجعة، تقديم ، وتعليق: يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص33.

يوسف الملياني محل خشية الزينيين لإلتفاف الناس حوله لكراماته فسجنه أبو حمو الثالث لكنه عندما رأى كراماته أطلق سراحه وتركه وشأنه غير أن الملياني ظل في تلمسان إلى أن خرج أبو حمو الثالث منها هاربا إلى وهران، حينئذ خرج الملياني بدوره من المدينة ويعود التحالف بين الإخوة بربروس والملياني إلى سنة 923هـ/1517م أو ربما إلى ما قبل هذا التاريخ حيث نال خير الدين بركة الشيخ وهو تحالف يدين حيث شرط الملياني أن لا يجري حكم العثمانيين عليه، ولا على نسله ولا على من تعلق به وبنسله، رغم أن خير الدين منحه أربعة آلاف دينار، وعين له منحة قدرها ثمانية صبعان من القمح كل سنة، عند ذهاب الحجّاج إلى الحرمين، لأن الملياني تخوّف من العثمانيين بعد فعلتهم بتلمسان¹.

وقد حافظ العثمانيون على شرط الملياني كما ظل أتباع الشيخ مؤيديين للسلطة، فخير الدين إستقبل محمد بن مرزوقة بكر الملياني وأغدق عليه بالمال وجعله أميرا للحجّاج لحمل الصرّة إلى الحرمين وبقية إمارة الحج في ذرية ابن مرزوقة الذين إستوطنوا وادي الحامول بنواحي المدينة²، أما في الشرق الجزائري فيجد الباحث في شؤون الجزائر في القرن 10هـ/16م أن العلاقة بين العثمانيين وممثلهم في بايلك الشرق الجزائري وبين القوى الدينية فيه كانت متنوعة تبعا لقبول هذه الأخيرة الولاء لهم أو رفضها، فالقوى الدينية التي قبلت الولاء لهم حظيت بكل أنواع الإحترام والتبجيل والإعفاءات كما فعل باي قسنطينة الذي أعفى العائلات المرابطية بجبال البابور من الضرائب، وهناك من لم يدفعوا قط الضرائب مثل الوكاكسة بمنطقة تبسة لأن العثمانيين غضوا الطرف عنهم إحتراما لجدهم بو وكس على الأرجح، نفس الأمر فعلوه مع عائلة الفكون بقسنطينة، ومرة أخرى نجد الحكام العثمانيين قد إتبعوا سياسة فرق تسد بين القوى المحلية الدينية والعلمية والقبلية، حيث أشعلوا النار بين عائلتين بقسنطينة، عائلة الفكون وعائلة عبد المؤمن وكان النصر لعائلة الفكون لأنها أذعنت للعثمانيين، فيجلوها ومنحوها ركب الحج، أما عبد المؤمن فتم قتله³ لأنه رفض الحكم العثماني بتحريض من الحفصيين ونفس المصير عرفته الدولة الشابية التي طمحت

¹ - عبد الله نجعي، التصوف والبداية بالمغرب طائفة العكاكزة (ق16-17م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2000، ص102.

² - محمد الحاج صادق، المرجع السابق، (ص 104-105).

³ - محمد الصالح العنترى، المرجع السابق، ص 13.

على يدي عرفة الشابي لإعتلاء عرش تونس فكان مصيرها السقوط على يد العثمانيين الذين اعتبرتهم أجنب ورأت نفسها أحق بتمثيل الإسلام منهم¹. ويمكن القول أن ضعف الخطر الخارجي بالشرق لم يُؤدِّد إلى حلف عثماني مرابطي كما حدث بالغرب وقد يعزى ذلك إلى عدم وجود دولة قوية مجاورة منافسة ومثيرة للثورات ضد العثمانيين وإلى عدم الإعتماد على حزب ديني مثل الشرفاء مما جعل من العنصر الديني بالشرق أقل أهمية منه بالغرب الذي تعرض لغزو إسباني قوي ، وحسب العروبي فإن ذلك يعود إلى وجود خطتين دفاعيتين في مواجهة الخطر الإيبيري، فعلاوة على الفرق الجغرافي هناك الفرق في الهيئة القيادية لمشايخ الزوايا من جهة وزعماء العشائر من جهة ثانية ، فكل جماعة كانت تحاول إعادة بناء المجتمع المفكك حسب نمطها التأسيسي، ويعزو العروبي ذلك أيضا إلى الاختلاف في البنية الاجتماعية، ففي الشرق غلب النمط الهلالي القبلي الذي إستنفذ كل إمكاناته، فلجأ إلى عصابة جديدة تمثلت في جماعة مغامرين، إتفق أنها كانت تابعة للسلطان العثماني، أما في الغرب فإنتشر فيه نمط الزاوية التي عمدت إلى ذوبان الولاء القبلي المعهود، والتي توخت في العمق إسناد النفوذ الروحي لوارث السّر بالإنتمساب.

ومما تقدم يمكن القول أن العثمانيين بحثوا عن نفوذ روحي لأنهم كانوا قلة بالبلاد مقارنة بالسكان، رغم تفوق نظامهم العسكري خاصة أن أهالي أغلب المناطق كانوا يكرهونهم، فبحثوا عن تأييد المرابطين راجين منهم المساعدة لفتح المناطق التي إستعصت عليهم. وعليه فإنه وإن اختلفت سياسة العثمانيين تجاه القوى الدينية في القرن 10هـ/16م فإن الغالب عليها هو الإحترام والتفاهم، لأن الخطر المسيحي كان نقطة إلتقاء بين القوتين : القوة العسكرية العثمانية والقوة الدينية المرابطية. كما يمكن القول أنه كان للمتصوفة اليد الطولى في إرساء دعائم الحكم العثماني بالجزائر، فتغير بذلك مسار المنطقة كلها لهذا الموقف عاملهم العثمانيون بكل إحترام وتبجيل.

ثالثا: السلطة الصوفية وعلاقتها بالرعية (الأهالي):

تميزت الفترة التي سبقت العهد العثماني في الجزائر سياسيا، بانعدام الشعور بالوحدة الوطنية بمفهومنا الحالي وذلك بسبب إشتداد الصراعات القبلية على

¹ - علي الشابي، مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية في المجلة التاريخية المغاربية، العدد 13 و14، 1979، ص 71.

الإقاليم وإحتدام النزاعات السياسية على السلطة. فقد كان هناك حوالي 14 مشيخة¹ مستقلة ذاتيا منتشرة بربوع الوطن ، مما ساعد على تقلص النفوذ السياسي المركزي والذي اقتصر على تلمسان و احوازاها ، وبعض المدن الشمالية الغربية ولتعويض تلك القوى المركز برزت مجموعة القوى الروحية على رأسها الطرق الصوفية التي كان لها نفوذ وسلطة كبيرة على المجتمع اذ تمكنت من جمع العديد من القبائل حولها ، فكانت تشعر الأتباع والناس عموما بالمصير المشترك كلما داهمهم الخطر ، فكان المرابطون والطرقيون يعتمدون على أنفسهم في الدعاية لأفكار وتوسيع شعبيتهم، ويوجهونها روحيا بإصدار الأوامر إلى أهل المدن².

ويتضح ذلك مثلا في موقف عبد الرحمن الثعالبي حين دعا أهل المدينة وما حولها للجهاد ضد الهجمات الصليبية وتوفير أدوات الحرب واتخاذ عدة النصر، وكذلك حين أرسل رسالته إلى محمد بن احمد يوسف الكفيف ببجاية يحثه على الاستعداد للحرب ومقاتلة الأعداء³ هذا ما يؤكد لنا شيوع الروح الصوفية وتحكمها في توجيه الأهالي إلى الجهاد ولكنها مع ذلك لم ترقى إلى توحيد المشايخ والإمارات المتنافرة في سلطة واحدة ، فقد كان لكل مدينة رمزها الروحي الذي يؤلف بين القلوب ، فالثعالبي ظل حيا ثم ميتا يمثل رمز السلطة الروحية في مدينة الجزائر وأحواض متيجة ، ومحمد الهواري يمثل تلك السلطة في وهران ، وفي معسكر كانت الطريقة القادرية هي التي تمثل تلك السلطة ، وفي أحواض شلف وتنس كان يمثلها آل أهلول المجاجي ، وفي عنابة كانت المشيخة في عائلة ساسي البوني⁴.

لم تقتصر السلطة الصوفية على توجيه الأهالي للجهاد ضد الإسبان ، بل تجدها قد تحالفت مع العثمانيين في إنهاء الوجود الإسباني بالسواحل الجزائرية ، فالصوفية الثعالبية مثلا تعاونوا مع بربوس وعقدوا معه معاهدة لصد الإسبان الذين

¹ - أهم المشايخ التي كانت منتشرة في الجزائر هي واحات فقيق برئاسة سيدي بوسماعة (اولاد سيدي الشيخ) مجانية خاضعة لآل مقران القبائل الكبرى تحت نفوذ أسرة ابن القاضي أما الجنوب فكان تحت نفوذ الأحداث والتطورات إمارة تقرت التي أسسها المرابطة لالة البهجة أسرة أولاد جلاب .. ينظر: ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، (ص 58-59).

² - نفسه ، ص 460.

³ - ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار البصائر ، الجزائر، 2007، (ص 460-461).

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، (ص 138-140).

كانوا متمركزين بصخرة البينون¹، فيما استمرت القوة المتمثلة في سلطة الصوفية حتى فترة الحكم العثماني واتسع انتشارها ونفوذها مما جعل السلطة العثمانية الحاكمة، تبدي تخوفا منها خاصة وان هناك من عارض وجودها بالجزائر، الأمر الذي استوجب عليها محاولة كسب هذه الفئة من الرجال الصوفيين الى صفها بشتى الوسائل .

رابعا: السلطة الصوفية وعلاقتها بالأتراك العثمانيين (الحكام):

باعتبار أن الأتراك العثمانيين أصبحوا في الفترة العثمانية من ضمن الفئات المكونة للمجتمع الجزائري وبحكم التأثير والتأثر الناتجين بين العلاقات القائمة بين الفئتين التركية والجزائرية فقد كان من الطبيعي أن يكون هناك انجذاب الفئة التركية للطرقين ، خاصة وأن الطرق الصوفية ليست بالأمر الجديد عند العثمانيين فقد كان سلاطين الدولة العثمانية متأثرين بالتصوف ، حيث كان سلطان القسطنطينية مثلا حاميا للطريقة القادرية في المشرق ، كما اعتنى الأتراك بالمرابطين ايما إعثناء فكانوا يعظموهم ويتبركون بهم ويتقربون إليهم ويطلعونهم على خططهم ونحو ذلك ولتشجيعهم كان البشاوات يعينونهم أيضا كرؤساء على الأعراس والقبائل لكي ينتفعون باعطياتهم وزكواتهم².

ومن أمثلة ذلك تتوفر لنا وثيقتان تعكسان الأمر ، فهذا مرسوم تعيين لأحد المرابطين في ناحية بجاية جاء فيه:

"أما بعد فان حامله المعظم الفقيه الأجل السيد المولى الأعلى البركة ، السيد عبد القادر بن المرحوم الولي الصالح القطب، الناصح الشيخ البركة سيدي أمقران نفعنا الله ببركاته ، و أفاض علينا وأنعم عليه بكافة عرش برياشة الذي هما على ثلاثة فرقان يقال لها أولاد عبد الله والثانية تسمى بيري ، والثالثة التي تجمع الجميع يقال لها برياشة ، ويكون الجميع زاوية من جميع زواياه ، ويكون كلهم حيا عليه وعلى أعقاب أعقابهم ينتفع بمقرهم وزكواتهم له، ورفعنا عليهم يد باي هذه الناحية الشرقية وعمالهم عن الأذن...." مولاي الدولاتي الحاج محمد باشا أيده الله بمنه أمين.... أواسط شهر جمادى الثانية 1093 هـ الموافق لشهر جوان 1682 م³.

¹ - محمد الامين بلغيث؛ فصول في التاريخ وال عمران بالمغرب الإسلامي، انتيربسي: الجزائر، 2007، (ص 95-96).

² - محمد الأمين بلغيث ، المرجع السابق، ص 97.

³ - نفسه، (ص 98-100).

أما الوثيقة الثانية فتتعلق بتعيين مرابط قرية جيجل جاء فيها :
 "الحمد لله وحده، ليعلم من يقف على هذا الأمر الكريم والخطاب الواضح الجسيم، من القواد والعمال الخاص والعام وجميع المتصرفين في الأحوال خصوصا قرية جيجل، أما بعد فإن حامله المعظم الأجل السيد الحاج أحمد المكي، نجل القطب سيدي أمقران، نفعنا الكبير ببركاته أمين، أننا قد أنعمنا عليه وقدمناه مرابط بقرية جيجل، ولا يتعدى عليه أحد من أهل النوبة، ولا من يكسر عليه حرمة منا ولوقوفه مع النوبة في إتيان الأرزاق ولوجه جده المذكور ولطعمه الفقراء والمساكين كتب عن أذن المعظم الأرفع مولانا الدولاتي السيد علي باشا، أواسط شوال (1168 هـ) الموافق لجويلية 1755 م¹.

هذ ولقد لجأ البحارة بدورهم إلى رجال الدين ليتبركوا بهم فكانوا عندما ينوون الخروج للغزو، يذهبون أولا إلى الأولياء والصالحين لنيل بركاتهم وكانوا يطلقون من البحر عند ذهابهم وإيابهم طلقات مدفعية معينة إحتراما لهم، إذا هرب منهم أحد الجناة إلى قبة أو ضريح ولي فإن اللاحقين به يتوقفون عن ذلك ولا يتابعونه². كما أن كبار العثمانيين ذهبوا إلى المرابطين الصوفيين وشاوروهم في أمر الاستيلاء على السلطة في الجزائر.

خامسا: موقف الطريقة من النظام التركي بالجزائر:

وعلى العموم فإن المتأمل لتاريخ العلاقة بين الحكام الأتراك العثمانيين في الجزائر والجزائريين عموما ، أن هاته العلاقة كانت شديدة التأثير بتدخل سلطة مشايخ الطرق الصوفية سلبا أو إيجابا ، وأنها لم تكن ذات وجهة واحدة ولم تكن قارة، فيمكننا أن نميز بين ثلاثة مواقف واضحة لدى رجال الطرق الصوفية في تعاملهم مع الإدارة العثمانية ، رجال ومشايخ الطرق الذين أيدوا الوجود العثماني منذ البداية، إذ أعلن هؤلاء تحالفهم الواضح مع العثمانيين ضد الإسبان واستمر بعضهم في مساندة لهم حتى أواخر عهدهم ومن أمثلة ذلك ما جاء في رحلة بيري رايس العثماني ، من أن الشيخ محمد التواتي كان يحيي مدينة بجاية من الإسبان ، وأن زاويته كانت ملجأ

¹ - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 141 .

² - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 468 .

للمجاهدين وغزاة البحر¹، إذ لجأ بيري رفقة عمه كمال رايس إلى زاوية الشيخ محمد التواتي، وطلب منه المساعدة سنة 901 هـ²، فما كان منه إلا أن رحب بهما وقدم لهما يد العون وعن عائلة بن القاضي التي تسكن إمارة كوكو وجبال جرجرة، فقد قدم شيخها الحسن بن القاضي أيضا يد المساعدة للعثمانيين، إذ قاد هذا الأخير الوفد الذي أرسله خير الدين إلى سلطان العثماني سليم الأول ليقترح عليه ضم الجزائر إلى الدولة العثمانية، ولو أنه فيما بعد قد غير موقفه³.

أما أحمد بن يوسف الملياني فيذكر التاريخ كيف قدم العون لعروج الذي استغل بدوره فرصة الخلاف بين الدولة الزيانية والملياني من أجل ضم حليف له يساعده على الاستيلاء على تلمسان، حيث زار عروج دار الملياني واتفق معه سرا، على عدة أمور، منها أن يعلن الملياني وأتباعه تأييدهم للعثمانيين، بينما تعهد عروج بعدم التعرض للملياني ولنسله ولمن تعلق به⁴، وقد أُشهر هذا التحالف والتزم به الطرفان طيلة العهد العثماني، ولم ينسئ خير الدين باشا أن يرسل من الجزائر هدايا ثمينة إلى الملياني بعد نجاحه في ضم تلمسان، كما اعترف لاحقا بابن الملياني كخليفة لوالده في رئاسة الطريقة الشاذلية وسمح له بنشر دعوتها، ويقال أن حسين باشا كان متزوجا من إحدى حفيدات الملياني.

ويذكر الشيخ الدين في مذكراته أن شيخ العرب أحمد بن علي بوعكاز السخري، ساند الأتراك في حربهم ضد الإسبان سنة 1515 وشاركت قبيلة الذواودة وفي هذه الحرب بجيشين، أحدهما رابض في شرق مدينة الجزائر، وثانيهما رابض في غرب العاصمة⁵.

أما في قسنطينة فقد نجح العثمانيون في إستمالة الشيخ عبد الكريم الفكون إلى جانبهم من أجل تأكيد نفوذهم في المنطقة، بعد أن التمسوا منه الموافقة

¹ - أحمد مريوش، الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحوث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 121.

² - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 464.

³ - بعد أن ابن القاضي مؤيد لدخول الأتراك إلى الجزائر، ثار ضد خير الدين وأخرجه من مدينة الجزائر سنة 1520 مما أدى بخير الدين إلى الإنسحاب إلى جيجل وبعد 5 سنوات تمكن من الإنتصار عليه وفرض غرامة على أتباعه، أحمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 109.

⁴ - سعد الله أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 465.

⁵ - أحمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، (ص 115-116).

والرغبة في التحالف معهم ، وقد ساعدهم هذا التحالف على التوغل نحو الداخل ، والحصول على ملامح الطاعة بالمناطق التلية ، والتقدم تدريجيا نحو الجنوب الشرقي في محاولة لإنهاء تحصن أولاد صولة بجبال الزاب¹ ، وفي مقابل ذلك حصلت عائلة الفكون على امتيازات كبيرة خاصة في المجال الاقتصادي ، فتمكنت من الارتقاء في الحياة والسلطة ومن بين هاته الامتيازات ما يلي :

- قيادة بعثة الحج ، مع الحق الكامل في اختيار أعضاء القافلة والاستفادة من هذه المهمة ماديا بقدر الإمكان .

- إدارة جميع أوقاف الجامع الكبير دون مراقبة ولا محاسبة من طرف السلطة العثمانية.

- إعفاء جميع الأوقاف التابعة للعائلة وجميع أملاكها في المدينة وفي الريف من الضرائب ومن كل الغرامات .

- الإعفاء أيضا من الغرامات والسخرة، وحق دخول المدينة والخروج منها ، وحق توفير الطعام والسكن.

- استفادة العائلة من نيل الهدايا والعطايا العقارية وغيرها ، ومن حق العشر من الزراي والخشب المحول من نواحي الأوراس إلى قسنطينة ومن حق المكوس على أسواق الخضر والفواكه ، و من جهة أخرى فإن جميع من يلتجئ إلى العائلة سواء في المنزل أو غيره ، ولو خارج المدينة ، مصون لا يتعرض لأي عقوبة ولو ارتكب جريمة² .

أما في عنابة فقد تآزرت عائلة ساسي البوني مع العثمانيين ومدت لهم يد المساعدة ، إذ توطدت بينهم علاقة حميمة على مر الزمان وتتجلى هذه العلاقة من خلال الرسائل المتبادلة بين محمد ساسي البوني ويوسف باشا الجزائري من جهة ، وبين أحمد بن قاسم البوني وأحمد بكداش من جهة أخرى وفي منطقة الشلف نجد أن العثمانيين قد أتبعوا مع الشيخ محمد بن المغوفل³ نفس الطريقة التي اتبعوها مع الشيخ الملياني ، إذ كان للمغوفل نفوذ على قومه لذلك كان أول من قصده

¹ - محمد الأمين بلغيث ، الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشابية، ط2، داركتاب الغد للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص50.

² - ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج2، (ص 520-521).

³ - كان ابن المغوفل من مشاهير صلحاء الشلف اوائل القرن العشرين، اتصل به العثمانيين بغرض مساعدتهم في الإستيلاء على تلمسان، وطلبوا منه التوجه معهم لكنه رفض ان يذهب معهم وارسل بدله ولديه مما يدل على علامة الرضى والتأييد، ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق، ص 143 .

العثمانيون في هذه الجهة وطلبوا إليه مبايعتهم ومناصرتهم على الزينيين ، ومباركة حملتهم عليها ، فكان لهم منه ما أرادوا¹ ، ومهما يكن من درجة التأييد التي أبداهها رجال الصوفية حيال الوجود العثماني في الجزائر فهي مبنية على أساسين :

*- الأول يتمثل في استنجاد رجال الطرق الصوفية والمرابطين بالقوة العثمانية التي رفعت لواء الجهاد ضد الحملات الصليبية بهدف التصدي لهذا الخطر الذي كان يهدد الكيان الإسلامي في الجزائر ، والذي مثله كل من الثعالبي الذي تحالف مع العثمانيين وعقد معهم معاهدة لصد ومواجهة حملات الإسبان الذين كانوا متمركزين بصخرة البنيون² ، وسالم التومي الذي استقبل عروج أثناء قدومه إلى مدينة الجزائر لنصرة أهلها وكذا كل من محمد التواتي وساسي البوني كما سبق ذكره.

*- أما الأساس الثاني الذي ارتبط به تأييد السلطة العثمانية ، فيتمثل في سياسة التحالفات التي لجأ إليها الحكام بغرض إحكام سيطرتهم على أكبر عدد ممكن من المناطق وذلك إما بإعطاء امتيازات كبيرة وواسطة للمشايخ مثل ما حدث مع عبد الكريم الفكون³ وكذا قبيلة المعاتقة⁴ التي أعفاها الباي محمد بن علي من الضرائب كضريبة العشور والزكاة ، وحصول آل مقران على وضع خاص بعد إتفاقيهم مع حكام الإيالة في بني عباس في نهاية القرن 17م على توليتهم جمع الأخشاب من منطقة بجاية وتحميلها إلى الجزائر ، وفي المقابل يتولون إدارة الإقليم الذي يقطنونه ، أما في سنة 1682م⁵ فقد اقتطع الداوي حاج محمد إقليم مجانية من باي قسنطينة ومنح إدارته لعبد القادر بن سيدي محمد أمقران .

أما الأسلوب الثاني فهو عن طريق المهادنة أو المصالحة ، فمثلا صالح باي 1725 – 1792م، الذي حكم بايلك الشرق منذ 1771م انتهج هذا الأسلوب مع الكثير من القبائل المتواجدة في إقليمه، واستطاع بذلك استمالة الكثير من رجال الدين

¹ - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج1، ص 55.

² - اسم أطلقه الإسبان على مكان يقع في ساحل مدينة الجزائر وعند العرب يعرف بإسم حصن الصخرة، أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج9، ص143.

³ - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج2 ، (ص 519-520).

⁴ - تظلم القبائل الواقعة في غرب الوادي وجرجرة وكانت سلطتها بيد الشيخ سيدي عمار بوختوس الصغير، حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 69.

⁵ - عبد الرحمن الجبالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 47.

والمرابطين والصوفيين، بعد أن صفى له الجو مع العديد من الاعراش والبطون التي ضمها إليه مثل سكان جبال عمور وبلاد الميزاب ومنطقة الأغواط وتقرت¹.

أما الصنف الثاني فيمثله مجموعة من رجال التصوف الذي عارضوا بشدة أسلوب حكم العثمانيين الأتراك في الجزائر واعتبروه تسلطا ووصفوه بنعوت شديدة ومن ثمة أشهروا في وجوههم المقاومة ومن أمثلة ذلك ما قام به أحمد بن ملوكة التلمساني ، الذي عارض القائد عروج عند دخوله مدينة تلمسان ونظر لسياسته أنها عدوان على التلمساني ولا بد من التصدي لها ومحاربتها². ومما يذكره أبو القاسم سعد الله في ذلك أن معظم المرابطين في تلمسان ونواحيها كانوا ضد الأتراك ، ومنهم الشيخ موسى اللاتي والشيخ عبد الرحمن اليعقوبي³ ومن بين المعارضين أيضا الحسن بن القاضي الذي كان في البداية من المؤيدين ، ثم ثار هذا الأخير ضد خير الدين سنة 1520 م وتمكن من إخراجهم من مدينة الجزائر والسيطرة عليها لفترة خمس سنوات ، ثم استرجعها منه خير الدين سنة 1525 م ، وكذلك حفيده عمر بن القاضي ، الذي كان أيضا بمنطقة بني خيار ببلاد زواوة⁴، ودفعه ذلك للتحالف مع الملك الإسباني فليب الثالث في جوان 1603 بغرض التصدي للانكشارية لكن المرابط سيدي منصور كشف المؤامرة ، وكان معاديا للتقارب بين عائلة بن القاضي والإسبان واستقبل الجيش التركي في منطقة بني حنادشة سنة 1618 وتعاون معه على ابن القاضي والإسبان هذا وقد عرفت مرحلة عثمان باشا (1766-1791)⁵ بدورها تمردات مختلفة ، ومن أمثلة ذلك ما أقدم عليه سكان جبل فليسة بمنطقة جرجرة ببلاد القبائل الذين خرجوا عن طاعة الأمير ومنعوا الزكاة وحرموا البنات من الإرث⁶، وفي سنة 1789⁷ بعث إليهم عثمان باشا بفرقة تأديبية، لكنها وجدت مقاومة عنيفة وانهزمت في الحملة الأولى

¹ - أحمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 119.

² - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص 467.

³ - نفسه ، ص ص 468-469.

⁴ - تنتمي قبيلة الزواوة الى منطقة بجاية حصلت على وضع قبيلة المخزن خلال العهد العثماني، كما كانت تقوم القوامات للإيالة الجزائرية، حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 35.

⁵ - احمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 122 .

⁶ - يمكن اعتبار لجوء سكان منطقة القبائل الى حرمان البنات من الإرث بهدف منع انتقاله الى الفئة التركية، خاصة بعد انتشار مصاهرة الحاكم لفئة المتصوفين ، حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 42.

⁷ - احمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، (ص 122-123).

والثانية ولم تستطع الانتصار عليهم إلا في الجولة الثالثة بعد أن عزز الباشا جنده. كما عرفت مرحلة الدايات (1671-1830) مع مستهل القرن التاسع عشر، أخطر تمرد قادته الطريقة القادرية ضد الحكم العثماني في الجزائر بقيادة زعيمها ابن الشريف الدرقاوي¹، نتيجة لمجموعة من الأسباب المختلفة:

-* السياسة الضريبية القاسية التي فرضها بعض الولاة بالقوة على الفلاحين.
 -* عداوة ومحاربة بعض بايات وهران لرجال التصوف والطرق الدينية، اذ يذكر الناصري مثلا أن الداوي مصطفى طالب بتضييق الخناق على الطريقة الدرقاوية، و أمر بإلقاء القبض على زعيمهم عبد القادر ابن شريف الذي اختار الصحراء لاستعداداته للثورة²، بعيدا عن عيون الحكام ومواليهم.
 -* وجدير بالذكر أن هذا التمرد قد لقي مباركة ودعمًا من سلاطين المغرب الأقصى، بغرض إضعاف شوكة العثمانيين في الإقليم الغربي من الجزائر، الذي كان حلم المغاربة منذ سقوط الدولة الموحدية³. ورغم استعدادات ابن الشريف لسنوات عديدة وتمكن قواته في البداية من دحر الجند العثماني، والوصول إلى مشارف وهران لكن التمرد كان في النهاية مآله الفشل بعد أن عين داوي الجزائر الباي محمد بن المقلش سنة 1805⁴ على القطاع الوهراني الذي رجح من جديد كفة الميزان لصالح الحكومة المركزية.

كما نجد أن هناك تمردات وانتفاضات أخرى كانت متزامنة تقريبا مع الثورة الدرقاوية وعلى رأسها ثورة ابن الأحرش بمنطقة الشرق وتحديدًا في منطقة الشمال القسنطيني⁵. وقد إعتد ابن الأحرش في حركته تلك على أسلوب الدعاية والترشيد إذ استقر بزواوية الزيتون بضواحي مدينة جيجل ومنها طالب بقيام حكومة على حساب بايلك الشرق و أمر رجاله بمهاجمة الحاميات التركية ووصلت طلائعه إلى ضواحي قسنطينة خلال ربيع 1804م حتى نجح في دخولها والإستيلاء على كثير من مخازنها⁶.

¹ - محمد الأمين بلغيث، الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشاذلية، المرجع السابق، ص 65.

² - بعد ضعف موارد البحر وانخفاض الصادرات أصبح الدايات بحاجة لتغطية العجز مما دفعهم لتكثيف الحملات العسكرية على القبائل لجمع الضرائب، احمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 150.

³ - محمد الأمين بلغيث، الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشاذلية، مرجع سابق، (ص 65-66).

⁴ - احمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 124.

⁵ - محمد الأمين بلغيث، الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشاذلية، المرجع السابق، ص 66.

⁶ - احمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص 127.

لتتواصل وخلال السنتين 1806-1809م تواصلت المعارك من جديد بين ابن الأحرش ومعارضيه في سهول بجاية وضواحيها لكنه فشل أمام قوة الباي وجيشه ولم يجد ابن الأحرش من مخرج إلا التوجه نحو الغرب الجزائري وتعزيز العلاقة والتنسيق مع الطريقة الدرقاوية، حيث كان معه حلفائه من أولاد عطية لكن العثمانيين في آخر الأمر استطاعوا إخماد ثورة ابن الأحرش المتعاونة مع الدرقاويين¹.

ومن جهتها نجد أن الطريقة التجانية قد أعلنت أيضا معارضتها للسلطة العثمانية في الجزائر، حيث قام شيخها محمد التجاني سنة 1806 م بتعزيز علاقته مع سكان منطقة غريس بالقطاع الوهراني التي بايعه أهلها سرا ، وهو الأمر الذي أقلق السلطة العثمانية ، فوقع إصطدام بين الطرفين أحدهما مع باي وهران محمد الكبير بمنطقة عين ماضي بضواحي الأغواط والثاني مع باي التيطري ، والتي كانت في صالح العثمانيين ، الأمر الذي دفع بالتجاني إلى الإنسحاب ، ثم مغادرة الجزائر مع أهله وأتباعه نحو المغرب الأقصى².

ورغم إخماد ثورة ابن الأحرش وهجرة الشيخ التجاني إلا أن المعارضة للسلطة العثمانية في الجزائر، إستمرت في بعض مناطق الوطن وخصوصا نهاية القرن 18 فمعارضة رجال الدين والمتصوفة لم تتوقف وإن ضعفت كثيرا ، إذ أنه أيام تولي حسين باشا آخر الدايات حكم الجزائر³ شهدت فترة حكمه اضطرابات كثيرة عبر مناطق مختلفة من الوطن قادت قبايل ثائرة ومتحالفة مع رجال الطرق كمنطقة القبائل التي شهدت اضطرابات متعددة خلال أكتوبر من سنة 1823⁴، كما قام سكان بجاية أيضا بأسر المفتي الحنفي العثماني وجعلوه رهينة وعندما تدخلت الدولة العثمانية المركزية اتصلوا بالقناصل الأوروبية لطلب الحماية⁵.

هكذا ومن خلال ما سبق يتضح لنا جليا أن جل الثائرين على السلطة العثمانية قد ظهوروا خلال منتصف القرن 18 ، اذا استثنينا من سبق ذكرهم ممن أبدوا المعارضة منذ بداية ظهور الإخوة عروج على مسرح الأحداث السياسية للجزائر ،

¹ - ابو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2 ، (ص 509-510).

² - محمد الأمين بلفيث، الشيخ محمد بن عمر العدواني مؤرخ سوف والطريقة الشاذلية، المرجع السابق، ص66.

³ - أحمد مريوش وآخرون، المرجع السابق، ص127.

⁴ - نفسه، (ص 121-130).

⁵ - ابو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ج2، ص462.

ولعل تفسير تركيز التمردات تلك في هذه الفترة أي مع نهاية الوجود العثماني في الجزائر، هو فقدان الثقة بين بعض الجزائريين والسلطة العثمانية وذلك راجع إلى: *

- إرهاب الأهالي بالضرائب مع إنكماش موارد النشاط البحري التجارية مع مطلع القرن 17 والتي كانت المورد الأساسي لخزينة الدولة. فكلما قلت موارد الأسطول البحري لجأت حكومة الإيالة إلى زيادة استغلالها للطبقة الفلاحية الجزائرية وذلك بزيادة عبئ الضرائب عليها.

-* فساد بعض مكونات النظام العثماني وعزلته عن الرعية والمجتمع والعجز كليا عن التعامل مع المجتمع الجزائري بمختلف مكوناته وفئاته .

أما القسم الثالث والأخير فقد كان معتدلا في التعامل مع السلطة العثمانية ولا يفضل أدام إيماننا بأهمية الإستقرار حتى لا تمنح الفرصة للأعداء خاصة خارج الجزائر، فكان يكتفي بإعطاء النصائح والتوجيهات للسلطة العثمانية من دون أن يصل إلى أي تصادم معها ، وبذلك فهم لم يؤيدوا العثمانيين كل التأييد ولم ينقموا عليهم كل النقمة ، ومن أمثلة ذلك " الشيخ العبدلي في إقليم تلمسان الذي كان على علاقة بالقائد العثماني محمد بن سوري إذ كان يعظه ويطالب منه مطالب في صالح أهل البلاد"¹ ، أما الشيخ الشليحي فقد كان له دور كبير في تغيير موقف باي قسنطينة حسن بوحناك تجاه الأولياء والصالحين فبعد أن كان عنيدا متمردا عليهم، أصبح بفضله كريما ومتصالحا معهم²، إذ أنه أعطى للمرابط الشليحي قصرا في المكان المعروف باسم الأربعين شرين الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم دار الشليحي كما أنشأ له زاوية في أولاد عبد النور وأعفاها من الضرائب فكثيرا ما كان العثمانيون يكثر من الهدايا والعطايا للمرابطين بهدف استمالتهم وتوظيفهم عند الشدة ضد المعارضة الأمر الذي جعل البعض من رجال الدولة يشترطون صمت هؤلاء من جهة والمرابطين بدورهم يرشون الولاة ليسكتوا عن ابتزازهم أموال الناس والتعدي على حرمان الرعية³ .

¹ - أحمد مريوش، المرجع السابق، (ص 129-130).

² - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص468.

³ - نفسه، (ص 469-470).

خلاصة:

وكمحصلة عامة للموضوع و مهما يكن من موقف رجال الصوفية وعلاقتهم
بفئة الحكام العثمانيين والتي تتميز بالتباين والإختلاف، فمن الأكيد أن لهؤلاء سلطة
سياسية ونفوذ كبير على المجتمع الجزائري ، وهو الأمر الذي جعل حكومة الأتراك في
الجزائر تبدي مخاوفها من هاته السلطة الصوفية وتحسب لها ألف حساب، مما
جعلها تلجأ إلى شتى الوسائل والسبل من أجل كسب ولائها والإستفادة من حضورها
الروحي على المستويين الخارجي والداخلي.